الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتجى (٥)

نتابع الحلقة الخامسة من هذه السلسلة بعد إسهامات: سلامة كيلة، وياسين الحاج صالح، وعبد الغفار شكر، وأحمد بهاء الدين شعبان. وسيليها في العددين القادمين إسهاما: رفعت السعيد، ومصطفى مجدي الجمّال.

الآداب

نايف سلّوم*

نشأة الحركة الشيوعية العربية: عيبان

ترافقتْ نشأةُ الأحزاب الشيوعية العربية مع عيبيْن لازما تطوُّرَها بدرجات متفاوتة، وحسبَ مسار كلّ حزبٍ قُطْري. وكانت نشأةُ الحركة الشيوعية في فلسطين بدايةَ عشرينيات القرن العشرين هي المهيمنةَ على هذه المستوى، وأثّرت بشكل لافت في مجمل الحركة الشيوعية العربية في المشرق العربي بعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا.

العيب الأول مرتبطٌ بنشاط الأممية الشيوعية في ما يخصّ المسألةَ الكولونياليةَ والقوميةَ في فلسطين، والسيطرة اللاحقة للبيروقراطية الستالينية على الأممية الشيوعية وتحويل هذه الأخيرة إلى جهاز بيروقراطي للسيطرة على الأحزاب الشيوعية القومية وإلحاقِها بـ «المركز» الروسي.

أما العيب الثاني فمرتبط بالنشاط الصهيوني العمّالي في فلسطين، والقادم من النشاط الصهيوني في روسيا بدايةَ القرن العشرين. ذلك أنّ جذور الحركة العمّالية اليهودية في فلسطين تَرْجع، بشكل أساسي، إلى الجناح الصهيوني العمّالي (بوعالي تسيون) داخل الحركة العمّالية اليهودية في روسيا القيصرية. فهذا الجناح كان ينطلق من إمكانية الجمع بين الصهيونية والاشتراكية، ويدعو العمّالَ اليهودَ إلى الهجرة إلى فلسطين وتصدُّرِ النضالِ من أجل «ضمان الاستقلال الإقليمي للشعب اليهودي في فلسطين» وإيجاد حلّ «اشتراكي» للمسألة اليهودية. وعلى هذا الأساس قرَّرتْ مجموعةٌ من أنصار ذلك الجناح الروسي في مطلع القرن العشرين الانتقالَ إلى فلسطين للمساهمة في عملية «التجميع الإقليمي للشعب اليهودي،» والنضالِ من أجل ضمان نجاح الحلّ «الاشتراكي» للمسألة اليهودية.[١]

يقول ماهر الشريف: «لم تنشأ الحركة الشيوعية الفلسطينيةِ في مطلع العشرينيات بين صفوف السكّان العرب الفلسطينيين، وإنما نشأتْ بين صفوف الأقلية الاستيطانية اليهودية المرتبطة بالمشروع الصهيوني، على أثر الانشقاق الذي وقع، في أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، داخل صفوف الحركة العمّالية اليهوديةِ في فلسطين.»[٢] فقد اعتبر الشيوعيون الفلسطينيون «أنّ الطبقة العاملة الفلسطينية، من خلال جبهتها الأممية الموحَّدة اليهودية ـ العربية، هي القوةُ الوحيدةُ القادرة على تجاوز ' التناقض القومي' في البلاد والسعي من أجل حلّ معضلات المسألة القومية الكولونيالية في فلسطين.»[٣] لم يلاحظ الشيوعيون اليهودُ أنّ التناقض على أرض فلسطين لا يُمْكن حلُّه عبر جبهة عمّالية متحدة مزعومة بين مهاجرين يهود مستوطنين وبين سكّان فلسطين من الفلاّحين والحِرَفيين التقليديين وبعضِ عمّال المشاغل. ولم تَفْشل الجبهةُ العمّاليةُ المتحدة نتيجةَ تدنّي الوعي الطبقي عند العمّال العرب كما يزعم ماهر الشريف، بل جاء الفشلُ الذريعُ من الطابع القومي ـ الصهيوني للحركة العمّالية اليهودية كما يقول هو ذاته. بل الحقّ أنّ الجبهة العمّالية والطبقوية في فلسطين كانت تصبّ الماءَ في طاحونة الإستراتيجية الصهيونية، أي في الهجرة اليهودية وتثبيتها. «فالهجرة اليهودية إلى فلسطين جَلَبَتْ معها هذا التناقضَ المستحيلَ الحلِّ على أرض فلسطين. وقد حاول الحزبُ الشيوعي الفلسطيني تفسيرَ ظاهرة هيمنة النزعة القومية على الحركة العمّالية اليهودية بالرجوع إلى ظروف تشكّل الطبقة العاملة اليهودية في فلسطين،»[٤] متناسيًا أنّ الهجرة اليهودية هي السرّ وراء هذه النزعة ووراء التناقض المستعصي. فقبل «انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، وقبل صدور وعد بلفور، كان الخطر الرئيسي من النزعات القومية الانفصالية

---

* ـ كاتب سوري.

١ ـ ٤ ـ د. ماهر الشريف، **الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩ ـ ١٩٤٨، الوطني والطبقي في الثورة التحررية المناهضة للإمبريالية والصهيونية** (مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ١٧، ٣٥، ٣٧، ٤٠.

بين أوساط العمّال اليهود في روسيا يتجسّد في الأفكار التي كان يُشيعها 'البوند،' حيث كان تأثيرُ هذا الحزب في صفوف البروليتاريا اليهودية يزيد عن تأثير مختلف المجموعات الصهيونية الاشتراكية مجتمعةً.»[١]

وطوال العشرينيات من القرن العشرين بقيتْ مسيرةُ الحركة الشيوعية في فلسطين محكومةً بخصوصية النشأة هذه. «فمع أنّ الحزب الشيوعي [في فلسطين] استطاع استقطابَ وتنظيمَ عددٍ من العمّال العرب، اعتبارًا من عام ١٩٢٤ بعد تبنّيه شعارَ 'التعريب،' كما ساهم في النضالات المعادية للإمبريالية والصهيونية، والتي كانت تخوضها الجماهيرُ العربية، وسعى إلى إقامة جبهة متّحدة مُعادية للإمبريالية مع قيادة الحركة الوطنية العربية، إلاّ أنّه بقي طوال تلك المرحلة... حزبًا 'يهوديًا' في تركيبه وتوجُّهه.»[٢]

لدخول الأممية الشيوعية اشتَرَطتْ هذه الأخيرةُ على الحزب الشيوعي في فلسطين تشكيلَ جبهة متّحدة مع الحركة القومية العربية الفلسطينية، و«تعريبَ» الحزب عبر استقطاب وتنظيم عمّالٍ عرب في صفوفه. واعترفت اللجنةُ التنفيذيةُ للأممية الشيوعية، في فبراير ١٩٢٤، بالحزب الشيوعي الفلسطيني، ووافقتْ رسميًا على قبوله في صفوف الحركة الشيوعية العالمية بعد أن اشترطتْ على قيادته التقيُّدَ بالشرطيْن التاليين: الأول هو السعي من أجل إقامة أوثق الصلات مع أوسع الجماهير العربية، بغيةَ تحويل الحزب من منظمة مقتصرة على الثوريين اليهود إلى حزب قُطْري حقيقي يمثّل طليعةَ العمّال العرب واليهود في فلسطين. أما الثاني فهو تقديم كافة أشكال الدعم لحركة التحرر الوطني للسكّان العرب، في نضالها ضد الاحتلال البريطاني ـ الصهيوني.[٣] غير أنّ هذيْن الشرطيْن كانا في الحقيقة يَعْملان على خدمة الهدف الصهيوني الاستيطاني، إذ كانا يعطيان شرعيةً للهجرة اليهودية ويثبّتانها حَيْن لم تَأْخذ الأمميةُ الشيوعيةُ في حسابها خصوصيةَ المسألة القومية والكولونيالية في فلسطين.

الاختراقات الصهيونية للشيوعية

كان النشاط الصهيوني واضحًا عبر اختراقاته للأممية الشيوعية في ما يخصّ جامعة كادحي الشرق، وعبر المندوبين الذين كانت تُرسلهم للمساعدة في تأسيس أحزاب شيوعية جديدة. يَكْتب رفعت السعيد في هذا الصدد أنّ الكومنتيرن كان يقدِّم نوعًا من العون السياسي والتنظيمي للأحزاب الحديثة التأسيس. ومن هؤلاء المبعوثين إلى المنطقة العربية: «أبو زيام (حيدر)، اسمُه الحقيقي وولف أورباخ، يهودي روسي، أحد خبراء ومبعوثي الكومنتيرن إلى البلاد العربية. أُرسل إلى فلسطين عام ١٩٢٢ وساهم في تأسيس وقيادة الحركة الشيوعية هناك ما بين ١٩٢٤ ـ ١٩٢٩. شمل نشاطه الحزبَ الشيوعي في سوريا ولبنان.»[٤]

ومنهم أيضًا: «بيرجيه (ي. بيرغر). اسمُه الحقيقي جوزيف ميكائيل زيلسنيك. يهودي بولوني، معروف باسم بارزيلي من خبراء الكومنتيرن ومبعوثيه إلى فلسطين عام ١٩٢٠، ومن ثم إلى سوريا ولبنان. عاد إلى موسكو ١٩٣٢. فيما بعد صار رئيسًا لقسم الشرق الأوسط في معهد فارغا للشؤون الاقتصادية والسياسية والعالمية... تحوّل إلى صهيوني.»[٥]

وهناك «يعقوب تيبر (شامي): خبير في شؤون البلاد العربية لدى الكومنتيرن، ومبعوثٌ من قبله إلى فلسطين. ساهم في تأسيس وقيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني. شمل نشاطُه الحزبَ الشيوعي في سوريا ولبنان. وُلد في روسيا ثم هاجر إلى بلجيكا حيث التحق بالحزب الصهيوني العمالي (بوعالي تسيون) ثم التحق بالشيوعية وأُرسل من قبل الكومنتيرن إلى فلسطين ثم سوريا.»[٦]

ومن المبعوثين أيضًا: «أفيجدور (بهيل كوسي)، وُلد في أكرانيا عام ١٨٩٢ والتحق بالحركة الثورية في وقت مبكّر وهاجر إلى الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية الأولى. التحق في أميركا بالفيلق اليهودي Jewish Legion الذي كان قيدَ التأليف وقتئذ، ثم ذهب إلى فلسطين لوقت قصير عام ١٩١٨، وأقام في مصر عامًا ونصف العام، ثم عاد إلى روسيا. أُرسل إلى مصر مرتين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٤ لينظّم أو، بعبارة أدقّ، ليبلشف الحزب الشيوعي المحلي.. وقد صار معروفًا كثقة في شؤون مصر. ثم أُرسل عام ١٩٣٢ ليتجول في الشرق الأوسط ويفتّش على الأحزاب المحلية.»[٧]

ونَذْكر من المؤسسين للحركة الديموقراطية للتحرر الوطني (حدتو) أو الميلاد الثاني للحركة الشيوعية في مصر: هنري كوريل، ومارسيل إسرائيل، و هليل شوارتز، وهي شخصيات يهودية بورجوازية عاشت

---

١ ـ د. ماهر الشريف، **الأممية الشيوعية وفلسطين ١٩١٩ـ ١٩٢٨** (بيروت: دار ابن خلدون ١٩٨٠)، ص ١٠٧.

٢ ـ ٣ ـ د. ماهر الشريف، **الشيوعية والمسألة القومية**، مرجع مذكور، ص ١٧، ٢٥.

٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ فؤاد الشمالي، **كتابات مجهولة**، تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب (دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٠، الطبعة الثانية ٢٠٠١)، ملحق (١): تعريف موجز ببعض الشخصيات الوارد ذكرها في كتاب [فؤاد الشمالي]: أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية ـ اللبنانية، ص ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠.

٧ ـ د. رفعت السعيد، **اليسار المصري ١٩٢٥ ـ ١٩٤٠، تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر** (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٧٢)، ص ١٢١.

في مصر بين الحربين.[١] وقد ساهم هؤلاء بتأسيس الفرع السوداني للحركة، والذي سيشكّل أساس الحزب الشيوعي السوداني.

إنّ النزعة البيروقراطية للأممية الشيوعية بعد سيطرة ستالين عليها، وبعد سيطرةِ مصلحة الدولة السوفييتية الجديدة على مصالح الحركة الشيوعية في العالم، وعَمَى الأممية عن رؤية خصوصية المسألتين الكولونيالية والقومية في فلسطين، كل ذلك جعل تَسرُّبَ عناصر ملوَّثة صهيونيًا إلى الأممية الشيوعية ـ ومن ثم قدومهم إلى المشرق العربي ليُشْرفوا على تأسيس أحزاب شيوعية محلية ـ أمرًا غايةً في الخطورة والالتباس التاريخي: كما أدّى تشجيعُ النزعة الطبقوية والنقابية إلى نوع من العدمية القومية العربية، وإلى دعم خفيّ وأمميّ للمشروع الصهيوني، وإلى نفور الحركة القومية العربية من تلك النزعة ومن التعاون النقابي اليهودي ـ العربي. وبهذا الشكل تم التأسيسُ لأحد إشكالات الحركة الشيوعية العربية في المشرق العربي، وهي الانفصالُ بين الشيوعية والحركة القومية العربية، وتخفيضُ البرنامج السياسي للحركة الشيوعية العربية إلى برنامج مطلبي نقابي، وأخطاء كارثيةٌ أخرى في التعاطي مع قضية فلسطين كمشروع التقسيم وغيره.

يقول د. ماهر الشريف: «كانت الأمميةُ الشيوعيةُ تجابِهُ في فلسطين مسألةً كولونياليةً ذاتَ خصوصيات معينة. فالقضية الفلسطينية، كمسألة كولونيالية، لم تكن نتيجةَ الصراع الدائر بين الإمبريالية وحركة التحرُّر الوطني للشعب العربي فحسب، وإنما نَتَجتْ [أيضًا] عن تصارع ثلاثِ قوى فوق الأرض الفلسطينية، وهي: الإمبريالية الانكليزية والحركة الصهيونية من جهة، والحركة القومية العربية الفلسطينية من جهة أخرى. وهكذا، كان ينبغي على الأممية الشيوعية أن تحدِّد موقفها تجاه كل من هذه القوى المتصارعة.»

وفي فترة انعقاد المؤتمر العالمي الثالث للأممية الشيوعية، انعقد في موسكو، بين ٣ و١٩ تموز ١٩٢١، المؤتمرُ العالمي الأول للنقابات الثورية، حيث تم تأسيسُ الأممية النقابية الحمراء تحت اسم «البروفينترن» ـ وهذه ثغرة أخرى سوف تستغلها الصهيونيةُ العالمية، حيث التاخي النقابيُّ العماليُّ بعيدًا عن التمايزات القومية.

وفي المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية أَعْرب لينين عن اعتقاده بأنّ الرأسمالية العالمية قد دَخَلتْ في مرحلة الاستقرار الموقت «وأنّ على روسيا السوفيتية أن تتعايش، ولفترة من الزمن، مع بلدان أوروبا الغربية في محيط رأسمالي. وقد دعا لينين الحركةَ العمالية الثوريةَ إلى أن تسعى بنشاط في سبيل تحضير شروط انتصار الثورة الاشتراكية ودراسة مراحل تطورها بشكل دقيق وملموس في البلدان الرأسمالية المتقدمة.»[٢] وقد أكّد المؤتمر أنّ الأداة الثورية الكفيلة بإنجاز هذه المهام تتمثّل في الجبهة العمّالية المتحدة القائمة على أساس وحدة العمل والنضال بين جميع العمّال، بغضّ النظر عن انتماءاتهم السياسية وعن قناعاتهم الإيديولوجية. وقد طالب المؤتمرُ جميعَ الأحزاب الشيوعية بالسعي إلى إقامة مثل هذه الجبهة،[٤] بغضّ النظر عن الخصوصية الكولونيالية والقومية لبلد من البلدان. وهذه نقطة أخرى سوف تَخْدم المشروعَ الصهيوني بطريقة آلية، ولن تخلق جبهةً متحدةً، بلْ المزيدَ من العداء بين العرب والمهاجرين اليهود، وتخلق المزيدَ من التباعد بين الحركة القومية العربية في فلسطين وغيرها وبين الحركات الشيوعية في المشرق العربي.

لقد كانت التصريحاتُ الثورية التي تقول إنّ على البروليتاريا الثورية أن تَدْعم النضالَ المعادي للإمبريالية الذي تخوضه حركةُ التحرر القومي في البلدان المستعمرة والتابعة، ولكنْ بشرط النضال «ضد النزعة القومية العمياء،» والدعوةُ إلى إحلال روح الحقد الطبقي محلَّ روح الحقد العنصري... أقول كانت مثل هذه التصريحات تصبّ الماءَ في طاحونة المشروع الصهيوني عبر الدعوة إلى التعاون العربي اليهودي العمّالي. لقد كانت الحركة البروليتارية الصرفة الموجّهة مباشرةً ضد المستثمرين الوطنيين والأجانب تلعب الدور الرجعي عينَه في ما يخصّ المسألة الكولونيالية والقومية في فلسطين. وهذا ما دعا المندوبَ السوفييتي مانويلسكي، رئيسَ اللجنة الخاصة المكلَّفة بصياغة تقرير عن المسألة القومية والكولونيالية، في المؤتمر الخامس للأممية الشيوعية عام ١٩٢٤، إلى انتقاد الأحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة والتابعة، واتهمها بأنها قد جابهتْ باستحياءٍ بالغ خلال الفترة السابقة المسألةَ القوميةَ والكولونياليةَ. وأكّد أنّ نقص الاهتمام الذي أولاه الشيوعيون لهذه المسألة قد أدّى إلى ترك قيادة الحركة التحررية المعادية للإمبريالية تُفْلت من أيدي الشيوعيين، وتعود إلى أيدي العناصر البورجوازية القومية. كما انتقد مانويلسكي نقصَ الاهتمام الذي تُوليه الأحزابُ الشيوعيةُ الأوربية للمسألة القومية والكولونيالية، وحذَّرَها من خطر «وجود بقايا اتجاهات اشتراكية ـ إمبريالية بين صفوفها.»

والحال أنّ مسارَ الحركة الشيوعية في فلسطين قد أثّر في كافة الأحزاب الشيوعية في المشرق العربي، إذ حُرمت الحركةُ الشيوعيةُ من قيادة الحركة القومية العربية بسبب بيروقراطية الأممية الشيوعية وسيادة النزعتين النقابية والطبقوية في الحركة الشيوعية العالمية، نتيجةً لتأثير المركز الروسي في الأحزاب الشيوعية والقومية.

دمشق

---

١ ـ راجع: **أوراق هنري كوريل والحركة الشيوعية المصرية**، دراسة بقلم د. رؤوف عباس، ترجمة عزة رياض (سينا للنشر الطبعة الأولى ١٩٨٨).

٢ ـ ٤ ـ د. ماهر الشريف، **الأممية الشيوعية وفلسطين ١٩١٩ـ ١٩٢٨**، مرجع مذكور، ص ١٢، ٣٧، ٣٨، ٤٢.